بلاد البرانس...إكراهات الطبيعة ودمار النشاط البشري

الأستاذ أحمد الحلافي: باحث في قضايا المنطقة

ما يميز البرانس بلادهم بين مجالين كبيرين حسب طبيعة التضاريس:

- **البرانس د جبل** ،وتشمل ربع وربة ،وقسما من ربع **بني بوعلا** ومن ربع **بني فقوص**. ويتميز هذا المجال بغلبة المرتفعات والجبال، المكسوة بغطاء غابوي من البلوط الأخضر والعرعار والصنوبر.

- **البرانس د الوطا** ،وتشمل ربعي **الطايفة وبني فقوص**، حيث تسود الهضاب، وبعض الأشرطة الساحلية حول مجاري الماء (من عين بوقلال ،على الحدود مع مكناسة ،إلى ساحل أزلاف ،قرب باب المروج ،وحول واد الجمعة بقبيلة الطايفة) .

عرفت أراضي البرانس اختلالات بنيوية كبيرة خلال القرن الماضي، تجلت في عدة ظواهر مترابطة، طبيعية وبشرية، لن نبالغ إذا قلنا إنها تهدد وجود البرانس ومستقبلهم في أرض أجدادهم، ومن أهمها:

الضغط الديمغرافي على الوسط الطبيعي: بسبب النمو الديمغرافي النسبي الذي عرفته القبيلة خلال الفترة الاستعمارية، الناتج عن تحسن نسبي في الأحوال المعيشية وتراجع بعض الاوبئة الفتاكة، وأيضا لاستقبالها هجرات من المناطق المجاورة، ارتفع النمو بشكل كبير في فترة ما بعد الاستقلال خلال الستينات والسبعينات من القرن الماضي، إذ انتقل عدد السكان بالمنطقة وارتفع معه معدل الكثافة السكانية، الذي انتقل من 24 ن/كلم2 في بداية القرن الماضي إلى 76،3 ن/كلم2 سنة 1994 كما يبين ذلك الجدول التالي([1]):

السنوات	بداية القرن (تقديرات)	1960	1971	1982	1994
الكثافة السكانية (ن/كلم2)	24	56	66	75.3	76.3

وسجل المعدل الأقصى سنة 1971 بجماعتي الترايبة ومسيلة. ورغم التباطؤ المسجل في نسبة هذا النمو في الاحصاء العام لسنة 1982 بسبب الهجرة إلى أوروبا ،تازة والمناطق الاخرى داخل المغرب ، فإن الضغط الديمغرافي على الوسط الطبيعي ترك آثارا مدمرة على مستقبل السكان.

[1]) Contraintes du milieu et fragilité d'un espace montagnard ... - Persée www.persee.fr/doc/geo_0003-4010_2002_num_111_625_1655 de A Tribak

انحصار المجال الغابوي: إن حاجة السكان الى مساحات زراعية جديدة جعلهم يتوسعون على حساب الغابة،والمقبولة(إذ تتجاوز 696 طن/الهكتار)، وقيام فرنسا بتحديد الملك الغابوي ابتداء من 1913 و 1917 لم يوقف عملية الاجتثاث ،فبني خلاد وموحا موسى و اولاد كنون (فرقة وربة) مثلا، كلها عبارة عن «تقالع » و«زبايـر». وشملت عملية التوسع هاته السفوح شديدة الانحدار و قمم الجبال المكسوة بالدوم، ما أثر سلبا على نفاذية التـربة، وأدى بالتالي إلى تعـرية خطيرة وكوارث طبيعية، من انهيارات أرضية وغيرها([2]).

التعرية: إنها المشكلة الكبرى التي تهدد ارتباط البرنوسي بأرضه. فالأمطار الغزيرة التي تتهاطل على المنطقة تتحول بسرعة، في غياب غطاء نباتي واق للتربة، الى سيول جارفة تحمل معها الذبال نحو المنحدرات. وتستقبل البرانس سنويا ما بين 390 و740 مم من التساقطات، وتتميز بعدم انتظامها وقوتها إذ تكون على شكل زخات. فقد سجل، في شهر يناير 1996، تساقط كميات كبيرة بلغت 403 مم في تايناست ،و 408 مم في حد مسيلة، بل وصلت في هذا الأخير حدودا قياسية يوم 30 يناير 1987 بتسجيل 101 مم3.

- ويزيد من حجم هذه الظاهـرة نوعية التـربة سريعة الانجـراف والتضاريس شديدة الانحدار ما جعلها تتجاوز الحدود المتعارف عليها والمقبولة (إذ تتجاوز 595 طن/الهكتار([3]).

إن التعرية الكبيرة التي عرفتها المنطقة حولتها في معظمها إلى " سيوخ " من " الفريش " ذات تربة فقيرة ومردودية ضعيفة، علاوة على مساهمتها الكبيرة في توحل سد ادريس الأول في السافلة ،على واد إيناون ،وتسببت في أزمة مياه مزمنة.

سيخة بدوار بوعطية بقبيلة الترايبة

جبل موحا موسى ويمكن ملاحظة كثرة السيوخ وآثار الانهيار بادية على تضاريسه

2) كما حصل سنة 1954، فحسب روايات شفوية استيقظ سكان دواوير عين بيضا و اولاد كنون و بني خلاد و ما جاورها، في إحدى ليالي الشتاء التي عرفت أمطارا غزيرة ، على صوت مذهل وقضوا الليلة كلها في حالة من الرعب والترقب ينتظرون انبلاج الصباح. وكانت دهشتهم كبيرة ولم يصدقوا أعينهم لما تبين لهم انهيار ضخم ضرب جبل موحا موسى، ابتلع العديد من المساكن وغير معالمه بالكامل، وأودى بحياة العشرات من السكان.

[3]) L'utilisation des terres et le ravinement dans les moyennes - www.beep.ird.fr/collect/bre/index/assoc/HASH01d9/2dfcaf95.dir/23-236-247.pdf de A TRIBAK -

شح المياه: رافقت هذه الظواهر قلة المياه ونضوب العديد من الآبار والعيون خصوصا في فصل الصيف، فإلى عهد قريب، كانت الأنهار دائمة الجريان، وكان بإمكان الفلاحين زراعة الخضر على ضفافها، الأمر الذي أصبح متعذرا الآن في غياب غطاء نباتي يحمي التربة من الانجراف، ويساعد المياه على النفاذ إلى باطن الأرض وتغذية المياه الجوفية. فواد لحضر، أكبر أنهار المنطقة، أصبح جافا من يونيو الى نونبر تقريبا، كما أن مياه العديد من العيون نضبت، وأصبح البرنوسي مرغما على قطع مسافات طويلة في الصيف، قد تقارب في بعض الأحيان 10 كلم، للحصول على هذه المادة الناذرة وأضحت هذه المشكلة تقض مضاجع العديد من الدواوير. ومن الأمثلة الكثيرة على ذلك، نضوب مياه ما يزيد عن 6 عيون ببني خلاد ونفس الشيء في الدواوير الأخرى، ونقص صبيب ما تبقى مثل عين غرالة الشهيرة.

وفي دوار باب جنان (فرقة بني فقوص)، عرفت عين كبيرة، ذات الصبيب القوي، دورتين للنضوب منذ بداية الثمانينات، وحتى العيون الأخرى "الصامدة"، تراجع صبيبها بشكل كبير.

تدهور التنوع البيولوجي: كان هذا التنوع متميزا بغناه في الماضي، إذ تزخر حكايات الأجداد بأصناف عديدة من الحيوانات والحشرات، إما انقرضت نهائيا أو هي في طريق الانقراض، كما يتحدث الناس الآن بحسرة عن تقلص عدد بعض أنواع الاشجار. إن تدهور الموئل أو الموطن الطبيعي habitat naturel لهذه الثروة الطبيعية، والقنص الجائر بكل أنواعه من «نصبة» و «خشبة» و «فخة» و «فردي بوحبة» هما السببان الرئيسيان لهذا الوضع المتدهور. وهناك لائحة طويلة لبعض الأنواع التي انقرضت أو في طريق الانقراض من البرانس، رغم أنها مستوطنة أي لا تعيش إلا في المغرب أو شمال إفريقيا. (endémique)

الأروي(الوري أو النمس) والتي شوهد آخر قطعانها بالتخاخصة

كلب الماء الذي كان يستوطن واد بني خلاد حتى بداية القرن الماضي

انقرض الضربان من أرضنا بسبب جشع أجدادنا وولعهم بلحمه

تم القضاء على الضباع المخططة التي كانت تستوطن شمال افريقيا

إن التفاعلات بين النباتات والحيوانات، ثم بينها وبين وسطها الحيوي، تشكل ما يسمى بالنظام الإيكولوجي، واختفاء أحد العناصر المكونة له يفقد هذا النظام توازنه، وتكون آثاره سلبية على حياة الإنسان نفسه، في كل جوانبها الاقتصادية، من تقلص لموارد العيش التقليدية وإعدام إمكانية تطوير أخرى بديلة مثل السياحة، وأيضا على الجانب الاجتماعي (كثرة النزاعات على الحدود، تمزق النسيج الاجتماعي بسبب الهجرة وغيرها...) كما قد ينعكس حتى على الجانب الجمالي للزرعة البرنوسية.

إن هذا الوضع الكارثي دفع بالعديد من السكان إلى الهجرة نحو أوروبا أو بعض المدن المجاورة، إذ سجل انخفاض نسبة النمو في الاحصاء العام لسنة 1984، وانعكس، في السنوات الأخيرة، سلبا على عدد سكان كل الجماعات كما يبينه الجدول التالي([4]) :

الجماعة		بني فتاح	البرارحة	الكوزات	مسيلة	الطايفة	تايناست	تايناست المركز	الترايبة
عدد السكان	2004	12.378	9.065	7.710	10.153	8.808	9.341	1.905	8.073
	2014	10.929	7.429	6.575	8.356	6.992	11.530	1.695	6.672

ومن شأن تقلص عدد سكان المنطقة تخفيف الضغط على الموارد الطبيعية ،إذ لوحظ ،في السنوات الأخيرة ،تجدد الغطاء الغابوي ،الذي استفاد أيضا من انتشار وسائل الطبخ الحديثة. كما أن مساحات كبيرة من الأراضي تبقى مستريحة، إما لهجرة أهلها أو لارتفاع تكاليف اليد العاملة في الفلاحة. ورغم ذلك، يرشح بعض الباحثين الوضع إلى مزيد من التدهور، قد أفضت أبحاثهم إلى أن التعرية تكون أشد في الحقول غير المزروعة ([5]).

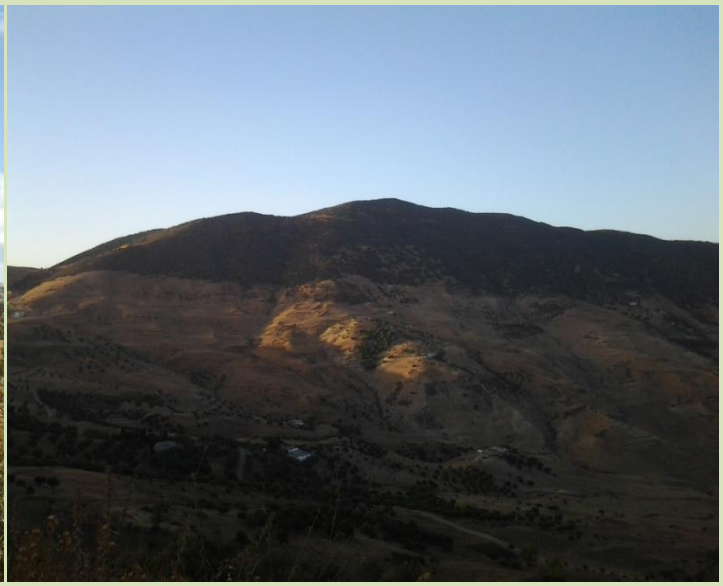

جبل أزدم بباب المروج يسترجع بعضا من غطائه النباتي /الغابوي

[4]) Site de la Direction Régionale d'Alhoceima - Haut Commissariat au Plan **www.hcp.ma/.../Premiers-resultats-du-Recensement-General-de-la-Population** *et* **Publications RGPH 2014 | Téléchargements | rgph2014**

5)L'érosion hydrique dans les séries marneuses tertiaires du pré rif oriental www.agrimaroc.org/index.php/Actes_IAVH2/article/viewFile/283/249 de A TRIBAK - 2012